مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

ملف حول

نقد بيداغوجية الادماج
التربية والقيم

العدد الثامن والأربعون - يوليوز 2011

التربية والقيم أية علاقة...؟

امحمد عليلوش (النقوب)

ترى ما هو شكل العلاقة التي تربط التربية بالقيم؟ وكيف بدأت التربية تتحمل المسؤولية في حل أزمة القيم؟ وهل التربية تسعى إلى قطيعة مع الطبيعة الإنسانية و بالتالي مع مفهوم القيم الأصلية؟ وكيف إذن تم تطوير نظرة الإنسان للتربية والقيم؟

إن العلاقة بين التربية والقيم بصفة عامة علاقة وطيدة ووثيقة، حيث لا يمكن أن نفصل بين التربية والقيم لأنهما متلازمتين ومتكاملتين. وقد تبدو هذه العلاقة بين الحقلين عند البعض ظاهريا كعلاقة بسيطة وطبيعية، إلا أن تطور النظرة إلى القيم من زاوية تربوية وعلى امتداد المسار التاريخي الطويل منذ النشأة الأولى للإنسان إلى يومنا هذا، يجعلنا نؤكد على تعدد زوايا التفكير والتحليل التي تنتمي إلى حضارات واتجاهات مختلفة وحسب المذاهب الفكرية المطروحة.

1 .السياق العام لعلاقة التربية بالقيم:

ولمناقشة وتحليل علاقة التربية بالقيم لابد أولا الإشارة إلى السياق العام الذي جاءت منه هذه العلاقة، والى التراكم المعرفي والفكري الذي عرفته كل من التربية والقيم كمفهومين تم تناولهما من لدن مختلف المفكرين والفلاسفة عبر العصور المختلفة منذ العصر اليوناني و الإغريقي إلى حدود القرن الثامن عشر والقرن العشرين مرورا بعصر الأنوار.حيث لا أحد من المفكرين والدارسين بما فيهم علماء التربية، يستطيع أن ينكر أن التربية كممارسة سلوكية عرفت وجودها مع وجود الحياة الإنسانية ذاتها. فالمهتمون بالدراسات الإنسانية عامة، وبتاريخ الفكر التربوي خاصة، يشيرون جميعا إلى أن عملية التربية قد مورست وبشكل تلقائي جدا، منذ العصور التاريخية الأولى[1]. ذلك أن الإنسان الأول اهتدى بمؤهلاته الفطرية، وبتجربته الخاصة التي استقاها من تفاعله مع شروط حياته،

1-امحمد عليلوش " التربية والتعليم من اجل التنمية" منشورات مجلة علوم التربية ، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء ، ٢٠٠٧ ص١٥

إلى ضمان بقائه وبقاء أبنائه. وذلك بإتباعه عددا من القواعد والأساليب السلوكية استطاعت أن توفر حدا أدنى من الصحة الجسدية والمقومات الفكرية والجمالية التي كان يريد أن يتصف بها الطفل كي تستقيم له سبل التطور والنضج وبالتالي النمو.[2] لقد ظل الإنسان فعلا، على مدى مختلف مراحل تطوره الحضاري، يواجه الحياة بشتى عناصرها وأبعادها موظفا في ذلك ما جيء به من مهارات وقدرات ، كي يحقق من خلالها أماله وطموحاته، أكبرها وأهمها ما كان يرمي إلى تخليد نوعه وتحقيق استمراريته عبر التاريخ البشري، فكان لزاما عليه أن يعتمد من خلال ادوار الآباء على تربيتهم و رعايتهم إلى أن ينضجوا و يشتد عودهم، ويصيروا قادرين على مواصلة المهمة التي اعدوا من اجلها، والمتمثلة في إنجاب خير خلف لخير سلف،و تربية هذا الحلف و إعداده لممارسة نفس الدور السالف الذكر. وذلك بمعاودة نفس الصيغ والأساليب الممارسة او بإدخال تغيير ضئيل على بعضها حسب الظروف المتاحة. وهنا يتم ممارسة التربية والقيم بشكل طبيعي وحسب حاجات الإنسان الأولى والمتمثلة في البقاء والاستمرارية وضمان الأمن لصغاره، مع عدم التمييز بين الهدف منهما والوسيلة المعتمدة في تحقيق ذلك. و بالتالي فالإنسان في الأصل يسعى إلى الحفاظ على نوعه عن طريق مواجهة صعوبات الحياة والتحكم في مجريات الطبيعة بكل ما يملك من وسائل...

وأكيد جدا أن مع تطور وضع الإنسان فكريا واجتماعيا، وتبدل حياة المجتمعات عبر التاريخ، تطورت التربية، فتغير مفهومها، وتوسع نطاقها وأحدثت بذلك مؤسسات اجتماعية بجانب البيت من مدرسة و مؤسسات دينية... وتغيرت كذلك أسسها وقواعدها التي تستند إليها، وتغيرت بذلك علاقاتها بمختلف الميادين ،كما تبدلت نتيجة لذلك الآراء التي نحملها حول الطفل، والأساليب التي ينبغي إتباعها معه لتربيته وتكوينه بما يغطي مختلف نواحي شخصيته. بل تغير فهمنا لطبيعة التربية ذاتها في تقلصها وامتدادها في حدودها واطلاقيتها، وكل هذا سيعرف بالطبع انعكاسا ملحوظا على معنى التربية ومفهومها، إذ سيعرف هذا المفهوم بدوره تسميات عدة، كل واحدة منها تعكس في الأصل فهما ومعنى خاصين لعملية التربية.[3] كما أن مفهوم القيم بهذا التطور الذي عرفته التربية له من الأثر الكبير في بلورته ولو بشكل ضمني في بناء وإعداد الكائن البشري.لكن ماذا عن علاقة التربية بالقيم الطبيعية التي لزمت الفرد منذ بدايته البيولوجية، والقيم الاجتماعية التي أصبحت ضرورية مع تكون مفهوم الجماعة ومفهوم التعاقد الاجتماعي؟

2- خالد المير وادريس قاسمي " سلسلة التكوين التربوي ع 1، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء.1995

3 -امحمد عليلوش ، المرجع السابق ص 16

التربية بين القيم الطبيعية والقيم الاجتماعية:

إن القيم كمعطى ملازم للطبيعة الإنسانية، ترجع بالأساس إلى تلك الطاقة الكامنة فيه والتي لا تجعل من الإنسان ينظر إلى أفعاله وأفكاره مجرد سلوكات طبيعية ومحسوسة فقط بل يعطيعها رمزية أيضا ومعنى ابعد من ذلك، هذا ما يجعل منها تكتسي طابع القيم التي تشكل جزءا من هويته وكيانه، لذا أصبحت ملكا رمزيا يسعى الإنسان إلى الحفاظ عليه ونقله إلى الأجيال اللاحقة عبر السلوكات التربوية التي اشرنا إليها في السابق. وهذا التلاؤم والتلازم بين وظيفة التربية ووظيفة القيم نشأ منذ الوهلة الأولى التي أدرك فيها الإنسان قيمته كذات أولا و كانسان تاريخي له دور اجتماعي ثانيا. ليصبح بذلك فعل التربية في مفهومه البسيط هو محاولة نقل مجموعة من القيم إلى النشء لينضبط لها ويتصرف بناء عليها بما يتوافق مع الحياة الاجتماعية. وهذا ما يجعلنا نشير إلى أن التربية عند القدماء لم تكن سوى تنشئة الفرد الإنساني على قيم الطبيعة من اجل الحياة داخل الجماعة، فارسطو أكد على أن القيم هي ما يوجد عند الفرد وان الفنون والقيم سابقة للصناعة والتقنية،[4] فالإنسان مؤهل بطبيعته لإنتاج منظومة من القيم التقنية واللغوية والعقلية والجمالية والاخلاقية والسياسية. لقد جاءت القيم بالفعل نتيجة للرغبة في البقاء، فكان اكتشاف الأدوات والإنتاج ومعها ظهر أحد أهم المفاهيم المرتبطة ارتباطا وثيقا بالقيم وهو مفهوم السلطة الذي تحول من علاقة سيد بعبده إلى علاقة سلطة عمومية بمجتمع. هذه السلطة التي مارست السلطة التربوية باعتبارها جزءا لا يتجزأ من السلطة السياسية. و لأن نشأة القيم كان بالأساس لتلبية حاجة الأفراد في العيش ضمن جماعة تضمن الحرية، هذا ما جعل الفرد يقرر التخلي عن العنف من اجل التعايش مع الأخر.

وهكذا فقد أسس كل من ارسطو وافلاطون للسلطة العمومية التي تتولى التربية. هذا المبدأ الذي أخذ به مفكرو عصر الأنوار كاحد المطالب التي أطرت النزعة الإنسانية والدعوة للتغيير واستعمال العقل. أما المنظور الإسلامي فهو يتفق مع الفلسفة اليونانية في الغاية من التربية في جانبها الأخلاقي أي الفضيلة من اجل حياة أفضل داخل دولة المدينة وداخل المجتمع المسلم، واتفق معها كذلك في تدخل الفعل التربوي عن طريق فرض البراديغم الجاهز للتربية على الطفل لكم من منطلقات مختلفة فاليونان يستمدون شرعيته من المعرفة الفلسفية والإسلاميون من الشرعية الدينية التي تعطي نموذجا جاهزا يتفق مع النصوص الشرعية، وما يغيب في هذا المنظور هو تلك النظرة الشمولية للتربية باعتبارها شأنا عاما منسلخا

4 -عبدالحق منصف " محضرات حول التربية والقيم" في مجزوءة القيم بمركز تكوين مفتشي التعليم، الفصل الثاني من التكوين سنة 2010 .

من السلط الثلاث التي جاءت الحداثة لتعيد في منطقها النظر (من سلطة الأب إلى سلطة الرجل الديني ثم سلطة الحاكم) لتحل بذلك سلطة واحدة وهي السلطة العمومية. ويرجع ذلك إلى طبيعة المنطلقات الدينية المؤطرة للجانب الإسلامي والتي تستند على مبدأ التكليف الشرعي للفرد (فرض عين)، وكذلك لكون التربية الخلقية جزء من هذا التكليف الذي جعل الفقهاء والمتصوفة وغيرهم ينظرون إلى التربية نظرة فردية تخص بالدرجة الأولى تفاعل الذات مع النص الديني وخضوعها للبراديغم الجاهز المتمثل في الأحكام الفقهية أو الأحكام السلطانية بالنسبة للأمراء أو القيم الجمالية عند الصوفية. أما مفكروا الأنوار فقد جعلوا من التربية جزءا من إستراتيجية التغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي، إلى درجة جعلت العديد من الفلاسفة يؤولون فكرة الأنوار ذاتها تأويلا تربويا. وهكذا نجد كانط يشير إلى انه ليست الحاجة إلى التربية سوى حاجة إنسانية خالصة، لذلك كانت فعلا للحرية لأنها تقوم على مبدأ الاستقلال الذاتي طالما أن الذات الإنسانية هي مصدر كل غايات التربية وأفعالها. ويحرصون على أن تكون التربية المجال الفعلي لولادة الإنسان التي يكون وحده مسؤولا عنها. فلا يصنع الإنسان تاريخه إلا بواسطتها.

على سبيل الختم:

وختاما، فإذا كان منطق الحداثة هو إعادة النظر في ثلاث سلط أساسية كما اشرنا في السابق ، لها علاقة بالتربية وهي سلطة الأب والسلطة السياسية والسلطة الدينية، فان علاقة التربية بالقيم لها مرجع انثربولوجي ومرجع سياسي أي نظرية الدولة والسلطة، وبالتالي ضرورة تحرير التربية من مختلف هذه السلط عن طريق إعادة النظر في مفهوم القيم الاجتماعية – على حد تعبير الدكتور عبد الحق منصف– من خلال إعادة النظر في التعاقدات والسير نحو المنظور الحديث للتربية والذي تأسس مع بداية القرن الثامن عشر (قرن التربية) والذي يسير نحو الحقوق والقيم وليس نحو الوسطية. لكن إذا كان للإنسان قيم بشكل طبيعي وجاءت التربية لضمان استمراريتها فانه ثمة قيم اجتماعية أيضا يتم التأسيس لها مع ظهور مفهوم التعاقد الاجتماعي وتأسيس الدولة وبالتالي السؤال المطروح الآن ، وخصوصا مع حلول القرن الواحد والعشرين وبروز فكرة العولمة واكراهات العالم القرية الصغيرة التي ابتدعها ماكلوهان وبالتالي انقراض مفهوم الدولة الوطنية، هو كيف يمكن التوازن بين ما هو طبيعي كأصل وبين ما هو اجتماعي كضرورة وكحاجة، وفي ظل الحرية المطلقة للفرد والمادية المتزايدة؟ وهل فعلا ستضمن السلطة العمومية إمكانية استمرار التربية وبالتالي الحفاظ على القيم الإنسانية؟ أم أن الأمر ينذر بانقراض التربية وظهور العنف و التبعية واللاتربية وانتشار قانون الغاب بطرق حديثة وبالتالي انتعاش مصاصي الدماء ؟